المكتبة وتحديات المستقبل: هل نحتاج جميعًا إلى الاستراتيجية نفسها؟

فرناندو خواريث أوركيخو



الملخص:

يناقش المقال اختلاف استراتيجيات المكتبات في مواجهة التحول الرقمي، ويرفض افتراض أن نموذجًا واحدًا يناسب جميع المؤسسات. ويبحث في جوهر المكتبة ورسالتها التعليمية والثقافية والاجتماعية، مع الاعتراف بتغير أدواتها وخدماتها عبر الزمن. ويعرض تحديات المكتبات التي يديرها موظف واحد أو تعمل بموارد محدودة، وأثر ضغط المهام والتعلم بالممارسة في تقليد نماذج لا تناسب الواقع المحلي. ويدعو إلى بناء حكم مهني مستقل وتقييم الأنشطة والنتائج، والاستفادة من المرونة والخبرة والموارد المتاحة. كما يوضح أن التقنية قد تمثل تهديدًا لمكتبة وفرصة لأخرى، بحسب حاجات مجتمعها. ويخلص إلى أن التكيف يتطلب فهم الخصوصية والرسالة والتجريب الواعي، بدل استعارة مخاوف الآخرين وحلولهم دون تمحيص أو تقييم.

الكلمات المفتاحية: استراتيجية المكتبات، التحول الرقمي، هوية المكتبة، المكتبات محدودة الموارد، التقييم المهني

1. جوهر المكتبة وتحديات المستقبل: هل نفقد هويتها:

لا يبدو أن المكتبات ستختفي مع الإنترنت والرقمنة. فعلى الرغم من التقلبات البنيوية للمجتمع الرقمي والظرفية الناجمة عن الأزمة الاقتصادية، تستمر المكتبات، مع التغييرات اللازمة، في أداء دور، ويُنظر إليها بوصفها ضرورية في مجتمع المعلومات. وفي إسبانيا تحظى بصورة ممتازة عند المستخدمين وغير المستخدمين، وهي الخدمة العامة الأعلى تقييمًا في مدن كثيرة. وحتى أثناء الأزمة، رأى 88.3% من غير المستخدمين أن دفع الضرائب لإبقائها يستحق العناء ((Gómez-Yáñez، 2014).

لكن بعض المواطنين والمهنيين يرون أن انتقالها من مكان للقراءة وإعارة الكتب إلى فضاء متعدد الوظائف تتزايد فيه التقنية يمسخ ماهيتها. كما أن غياب تعريف واضح لماهية المكتبة وما يخرج عن نطاقها لا يساعد على تحديد مجال العمل وتركيز الحلول.

حين أحلل نماذج مستقبلية يثنى عليها ويصعب عليّ التعرف فيها إلى المكتبة، وأقول في نفسي «لا نسمي هذا مكتبة في بلدتي، وبالتأكيد لن يكون مستقبلي»، أجبر نفسي على تذكر أن المكتبات وأمناءها والقراءة والمعلومات في تغير دائم، وأن بعض صور «المسخ» السابقة تبدو اليوم ضرورية. ومن دون مقارنة الإسكندرية بالحاضر، أتذكر، ونحن نتباهى بمجموعات القصص المصورة والواي فاي، أن القصص المصورة لم تكن مرحبًا بها قبل زمن قريب، وأن الحواسيب كانت للأمور المهمة لا لمشاهدة الفيديو أو إرسال الرسائل الشخصية، وأن الدردشة المذمومة سابقًا تشبه كثيرًا خدمة المراجع الافتراضية التي نفتخر بها الآن.

ما الذي يجعل المكتبة مكتبة؟ يستعين خوسيه بابلو غايو ليون بمفهوم (ethos)، أي الطابع المميز أو الروح التي تجعلنا نرى صلة بين مكتبة عصر النهضة والمكتبة العامة في مطلع القرن العشرين ومكتباتنا التي تتشكل حول تقنيات المعلومات. وإدراك هذا الجوهر، أو «مكتبيّة المكتبة»، يمكننا من تحديد نموذج المستقبل ((Gallo-León، 2018). وبرأيه، ينبغي أن تبقى التغييرات مركزة على نقل المعرفة وخلقها، خدمةً لرسالة المكتبة التعليمية والثقافية والاجتماعية الدائمة.

2. نحن ما نحن عليه؛ أين المشكلة:

ليس العصر وحده ما يشكلنا. تكفي زيارة البلدة المجاورة لنرى أن طابع المكتبة يعتمد أيضًا على خصوصيتها: شخصية العاملين، والمجموعة، وعمارة المكان، وخصائص المجتمع الذي تخدمه.

تسعى كل مكتبة بطريقتها إلى تحسين المجموعة والفضاءات، والتحول إلى ملتقى، وتوفير وصول متساوٍ وتعددي للمعلومات، ولفت انتباه المواطنين، ومواجهة التحديات الرقمية بثقة. ولا يلزم أن تتطابق الوسائل. ولا ينبغي الشعور بالنقص إن تعذر توفير مبنى معماري مميز، أو فريق كبير، أو ميزانية سخية، أو طابعة ثلاثية الأبعاد لا يعرف كثيرون منا ماذا يفعلون بها. كما لا ينبغي التنكر للأصول والخصائص. لا نخلط التكيف مع العصر بالهروب من الماضي، ولا التطور بالنسيان.

3. عزلة المهني:

تستخدم البلدان الناطقة بالإنجليزية تعبير (one person library) للمكتبة التي يديرها شخص واحد، و(solo librarian) لمن يتولى مسؤوليتها ويؤدي أعمالها كلها.

وفق أحدث تقرير «المكتبات العامة الإسبانية بالأرقام»، يعمل في المكتبات العامة ما يعادل 10,568.87 موظفًا بدوام كامل؛ والمتوسط 2.3 موظف لكل مكتبة، تقدم الخدمة نحو 29 ساعة أسبوعيًّا. وينفذ كل موظف يوميًّا 20.98 إعارة ويخدم 44.54 مستخدمًا، وينظم نحو 47 نشاطًا سنويًّا، ويشرف على الوصول إلى الإنترنت، ويختار المواد ويقتنيها ويعرّف بها.

ومع أنها لا تصنف رسميًّا كذلك، لا أرى مجازفة في القول إن حال أغلبية المكتبات العامة الإسبانية يقارب حال المكتبات ذات الموظف الواحد: عمل هش، وموارد شحيحة، ومهنيون لا يجدون زملاء يرجعون إليهم.

4. تعلمت المهنة أثناء العمل ولا أجد وقتًا للتفكير فيما أفعل؛ هل الأمر خطير:

بعد استعادة الديمقراطية افتتحت مكتبات عامة كثيرة في الثمانينات. وكشفت إعلانات الوظائف أن نقص المؤهلين لا يقل خطورة عن نقص البنى الثقافية؛ فلم يوجد عدد كافٍ من أمناء المكتبات المدربين، ولم تشترط الإدارات شهادة تخصصية. واستمر الحال في التسعينات ((García-Testal)، 1998). بدأ كثيرون منا العمل، وغالبًا منفردين، من دون دراسة في علم المكتبات تمنحنا التأمل السابق الضروري في معناها وتطورها وجوهرها.

أعرف بالتجربة، فقد أمضيت عشرين من ثلاثين سنة عمل بالمكتبة العامة وحدي، وليس دائمًا بدوام كامل، صعوبة إدارة مكتبة بمهني واحد: هشاشة العمل، وضعف المبنى، والوحدة. أما المكان والمجموعة والخدمات فغالبًا لا تبلغ المستوى المأمول. ومن دون تخصص أو خبرة سابقة تفرض الضرورة ممارسة للبقاء تحكمها العادة: نفعل ما اعتدناه لأنه «الصحيح» من دون سؤال، ونحاكي مكتبات أكبر وأفضل تمويلًا ومختلفة الواقع، واثقين بأنها تعرف أكثر منا. ولا يترك عبء العمل وقتًا كافيًا للتفكير في ملاءمة الخدمات وإنجازاتها. نبذل، مثلًا، جهدًا كبيرًا في تنشيط القراءة، وكثيرًا ما لا نفحص الإجراءات أو النتائج ((Lluch)؛ (Sánchez-García)، 2017).

الخوف من الخطأ يعيق القرار حين نحتاج إلى مرونة كبيرة للتكيف الرقمي. إذا لم تملك إلا صندوقي أحذية، فثمن الخطأ قليل؛ يمكنك التجريب والإخفاق. وفي مكتبة تعيش الشح، يكون الإخفاق الحقيقي ألا تفعل شيئًا، وهو أمر محبط ومميل.

5. غياب الحكم المستقل، أو هوية المكتبة بالتفويض:

كثير من المكتبات العامة الإسبانية فردية الموظف أو قريبة من ذلك، ويتولاها مهنيون تعلم معظمهم أثناء الممارسة. ويشجع اجتماع هذين العاملين تقليد النماذج التقليدية المقبولة وضعف الرأي المستقل. هكذا بنينا جوهر مكتباتنا حين كانت المجموعة المخزنة حجتها الأقوى؛ فهل تظل الاستراتيجية صالحة لتحديات مجتمع المعلومات؟

الخطاب الراهن للتغيير مفرط التقنية، يولد توقعات لا تحققها مكتبات كثيرة، وتقلل محاولات القطيعة من قيمة العمل «التقليدي» الذي تقدمه لمجتمعاتها. والاكتفاء بنسخ الآخرين يمنعنا من تصور أعمال أخرى بما نملكه فعلًا ((Martínez)، 2017).

يصعب تحديد جوهر مكتباتنا الخاص الذي نبني عليه مستقبلها إذا فوضنا القرار وتركنا الآخرين يرسمون الطريق. وهنا ميزة كبرى لهذه المكتبات، فليس كل شيء فيها عيبًا: خفة المؤسسة تمنح المهني مرونة كبيرة في القرار. علينا فهم أن ما يصلح لمكتبة قد لا يصلح لأخرى، وقد يكون الخياران صحيحين. والعمل بمكتبة أحادية الموظف لا يعني تحويلها إلى مكتبة بلا شخصية.

6. هل نحتاج إلى الاستراتيجية نفسها لمواجهة المستقبل:

كتب خافيير ليفا ملاحظة في (ThinkEPI) ظل عنوانها معي: «المكتبة تؤلمني» ((Leiva)، 2013). نص قصير شخصي أعلن فيه حبه للكتب والورق والمكتبات، واستعاد زيارات مكتبة حي (Gràcia) في مانليو، وكيف قاده ذلك طبيعيًّا إلى دراسة المكتبات والعمل فيها ونقل الشغف إلى أبنائه. ثم بيّن ألمه: الأجيال الجديدة تنشأ في بيئة شديدة التقنية تحل حاجاتها المعلوماتية مباشرة بالإنترنت، بل يشعر هو نفسه، رغم شغفه، أنه لم يعد يحتاج المكتبة لنموه الفكري لأنها فقدت المنفعة. إنه تنبيه إلى خطر عدم طرح مبادرات مبتكرة تقابل آثار المجتمع الرقمي.

أتذكر العنوان لأن المكتبة كانت تؤلمني أيضًا، لكن لأسباب أخرى: المكتبة التي بدأت فيها لم تكن تكاد تلبي حاجات القراءة والمعلومات أو تبني روابط مع أي جيل. وحين عُرضت الحوسبة، لم أتردد في التضحية بالمجموعة من أجل الاتصال، وخصصت ميزانية الكتب السنوية لشراء الحاسوب اللازم. ربما يضعني ذلك بين «المبتكرين»، في فئة «الوصوليين» التي توصف بأنها لا تؤمن بالمكتبات ولا تحب المهنة ((Gallo-León)، 2018)، لكنني أفضل الانتماء إلى المهنيين العمليين الذين رأوا في التقنية طريقًا لتحسين حاضر مكتبة الورق وأمتار الرفوف غير المرضي، وتقديم مكتبة مفيدة أخيرًا.

ما يثير قلق مكتبة قد يبعث الأمل في أخرى، كالإنترنت وإمكاناته. والحل في واحدة قد لا يكون الأفضل لغيرها. في تجربتي أتاح التحول الرقمي قطيعة إيجابية مع نموذج لم يعمل:

- كسر العزلة؛ شكرًا (IweTel).
- أتاح إعادة استخدام أعمال مكتبات أخرى، وتحرير الوقت من تكرار غير لازم بواسطة (Z39.50).
- سهّل أعمالًا وخدمات مختلفة، مثل موقع الويب.

7. خاتمة:

أمام تحديات مجتمع المعلومات، لا ينبغي أن تتبنى المكتبات مخاوف المكتبات الأخرى التي تتخذها قدوة، أو تتبع حلولها بلا تمحيص. فاستنساخ الأنشطة والخدمات، واستعارة الاستراتيجيات للتكيف مع العصر دون مراعاة الخصوصية، قد يصطنع هوية تبعدنا عن مكتبة أنسب لحاجات مجتمعنا.

المراجع:

- Libraries Reinvent Themselves. Annoyed Librarian، 22 نوفمبر 2010. https://goo.gl/dumL57
- https://en.wikipedia.org/wiki/One-person_library
- https://www.cultura.gob.es/alziraweb/alziraweb.cmd?command=GetIndicadorRendimiento&id=52
- Gallo-León, José-Pablo (2018). "Bibliotecidad: una discusión sobre la esencia de la biblioteca en momentos de cambio". Anuario ThinkEPI, 12, 113-124. http://dx.doi.org/10.3145/thinkepi.2018.12
- García-Testal, Cristina (1998). "Intrusismo profesional otra vez". El profesional de la información, 7(10). http://www.elprofesionaldelainformacion.com/contenidos/1998/octubre/intrusismo_profesional_otra_vez.html
- Gómez-Yáñez, José-Antonio (coord.) (2014). El valor económico y social de los servicios de información: bibliotecas. Madrid: Fesabid. http://hdl.handle.net/10421/7447
- Leiva-Aguilera, Javier (2013). "Me duele la biblioteca". Anuario ThinkEPI, 7, 72-77. https://recyt.fecyt.es/index.php/ThinkEPI/article/view/30334
- Lluch, Gemma; Sánchez-García, Sandra (2017). "La promoción de la lectura: un análisis crítico de los artículos de investigación". Revista española de documentación científica, 40(4). http://redc.revistas.csic.es/index.php/redc/article/view/996/1554

• Martínez, Evelio (2017). “Super entusiasmados (con las nuevas bibliotecas)”. Emartibd. Aventuras en infolandia, 25 mayo. https://emartibd.wordpress.com/2017/05/25/super-entusiasmados-con-las-nuevas-bibliotecas